



كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة
المجلة العلمية

بعض معالم

**الأخلاق الإسلامية من خلال آيات القرآن الكريم
(سورة آل عمران أنموذجاً)**

إعداد

د/ سندس إبراهيم عبد الرازق حسبو

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة

(العدد الخامس)

(الإصدار الأول)

١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٤ م

بعض معالم الأخلاق الإسلامية من خلال آيات القرآن الكريم (سورة آل عمران أنموذجاً)

اسم الباحث / سندس إبراهيم عبد الرازق حسبو

الدرجة العلمية / مدرس العقيدة والفلسفة.

الكلية / البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة

الجامعة / الأزهر الشريف .

البلد / جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: azhar.edu.eg.Sondwsabdelrazek @ ١٩

ملخص البحث :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم وجعله نورا وهدى للناس، يهتدوا به، ويسيروا على خطى حبيبهم ورسولهم محمد ﷺ، الذي مدحه القرآن وكرمه حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، ثم جعله قدوة للمسلمين يقتدون به ويتأسون بأخلاقه الكريمة.

وقد جعل الله تعالى حسن الخلق سببا في مرضاة الله ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) .

فأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفرادها أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

الكلمات المفتاحية: القرآن - الأخلاق - مكارم - المجتمعات - الكريمة .

First Requirement

Some Features of Islamic Ethics through Verses from the Holy Qur'an

(Surah Al-Imran as a Model)

Researcher's Name: Sundus Ibrahim Abdel-Razek Hasbo

Academic Degree: Lecturer

College: Al-Azhar Girls College in New Minya

University: Al-Azhar University

Emil : azhar.edu.eg.Sondwsabdelrazek19@

Country: Arab Republic of Egypt

Email:Research Summary:

Allah Almighty revealed the Holy Qur'an and made it a light and guidance for people, so they may follow it and walk in the footsteps of their beloved Prophet Muhammad ﷺ, whom the Qur'an praised and honored, as He said: "And indeed, you are of a great moral character" (Surah Al-Qalam, 4). He then made him a role model for Muslims to emulate and follow his noble character.

Allah Almighty has made good manners a reason for attaining His pleasure and entering Paradise. He said: "And hasten to forgiveness from your Lord and a garden as wide as the heavens and earth, prepared for the righteous - who spend [in the cause of Allah] during ease and hardship and who restrain anger and who pardon the people - and Allah loves the doers of good; and those who, when they commit an immorality or wrong themselves [by transgression], remember Allah and seek forgiveness for their sins—and who can forgive sins except Allah?—and [who] do not persist in what they have done while they know. Those - their reward is forgiveness from their Lord and

gardens beneath which rivers flow [in Paradise], wherein they will abide eternally; and excellent is the reward of the [righteous] workers.” (Surah Al-Imran, 133–136)

No human society can live in peace and harmony unless its members are bound together by strong ties of noble ethics.

Keywords: Qur'an – Ethics – Virtues – Societies – Noble

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أنزل الله تعالى القرآن الكريم وجعله نورا وهدى للناس، يهتدوا به، ويسيروا على خطى حبيبهم ورسولهم محمد ﷺ، الذي مدحه القرآن وكرمه حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، ثم جعله قدوة للمسلمين يقتدون به ويتأسون بأخلاقه الكريمة.

وقد جعل الله تعالى حسن الخلق سببا في مرضاة الله ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِهِمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾^(٢).

فأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفرادها أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

فإننا لو فرضنا وجود مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى، فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل التقدير.

(١) القلم، ٤.

(٢) آل عمران، ١٣٣-١٣٦.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم الدمار.

فإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فهو يعاقب الناس بالهلاك في الدنيا لفساد أخلاقهم.

فالرسالات السماوية كلها من أول سيدنا آدم — عليه السلام — إلى سيدنا محمد ﷺ قد اشتملت على ثلاثة أصول كبرى هي: العقائد، والشرائع، والأخلاق؛ فالأخلاق ركن من أركان الرسالات.

ولما كانت الأخلاق الإسلامية أساسها القرآن الكريم، والسنة النبوية، ففي هذا الباب عرض لبعض معالم الأخلاق الإسلامية من خلال آيات القرآن الكريم، وذلك من خلال ماورد في سورة آل عمران.

مصادر الأخلاق في الإسلام:

إن مصادر الأخلاق في الإسلام ترجع إلى مصدرين:

القرآن الكريم: (وفيه الكثير من الآيات التي تأمر بمكارم الأخلاق، وتدعو إلى التمسك بالقيم الخلقية العظيمة مثل: الصبر، ولين الجانب، وكظم الغيظ، وترك البخل، والغيبة والنميمة، والتجسس.

السنة الشريفة: وقد جاءت السنة الشريفة تحمل كل مايتعلق بجوانب الحياة الإنسانية بالنسبة للفرد والأسرة والمجتمع، والعلاقات التي يمكن أن تقوم بين الأفراد في داخل المجتمع، وبين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى غير الإسلامية، ونجد ذلك في السنة القولية (أي أحاديث الرسول ﷺ)، والسنة الفعلية (أي سلوكه وأفعاله والتي تعتبر منهاجاً كاملاً للحياة الإنسانية كلها)، وتعد السنة

التقريرية مصدراً للأخلاق كذلك، وهي ما أقره الرسول ﷺ من أقوال وأفعال وقعت أمامه أو أبلغت إليه، فوافق عليها أو أظهر رضاه عنها واستحسانه لها^(١). لذلك فإن جميع المذاهب الوضعية فشلت في وضع صورة كاملة للأخلاق، سواء كانت الأخلاق الفردية، أو الأسرية، أو الاجتماعية.

لكن الدين الإلهي الوحيد الذي جاءنا عن طريق الوحي، هو القادر على توضيح المعالم الأخلاقية المثلى للإنسانية جمعاء؛ فالقرآن الكريم جاء لنا بثلاث مجالات، مجال العقيدة، والتشريع، والأخلاق وذلك حتى تكتمل دائرة الدين وفق منهج منضبط وملامم للفطرة الإنسانية.

وقد سلك القرآن الكريم إلى النفس مسلوكاً يختلف عن سائر النظم الأخلاقية الوضعية، ذلك المسلك هو مسلك الفطرة الأخلاقية^(٢)، فالله تعالى خلق الخلق بيده، وسواه ونفخ فيه من روحه، فلا شك أنه سبحانه ركب فيه ما يناسب روحه تعالى من فطرة تؤمن به وتتعلق به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٣).

(١) الأخلاق في الإسلام مع مقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية: يعقوب المليجي، (ص ٢٩-٣٠)، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٥م.

(٢) الفطر: الابتداء والاختراع. والفطرة:

الحالة منه، كالجلسة والركبة. والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى في إتباعهم لأبائهم والميل إلى أديانهم عن مقتضى الفطرة السليمة.

وقيل: معناه كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به. فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد معه غيره. النهاية في غريب الحديث والأثر، (٤٥٧/٣).

(٣) الإسراء، ٧٠.

تعريف الخلق: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سميت الهيئة: خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقاً سيئاً)^(١).

فالأخلاق في الإسلام: عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم ويتميز هذا النظام الإسلامي في الأخلاق بطابعين:

الأول: أنه ذو طابع إلهي، بمعنى أنه مراد الله .

الثاني: أنه ذو طابع إنساني أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية. وهذا النظام هو نظام العمل من أجل الحياة الخيرية، وهو طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والمجتمع.

ولما كانت الأخلاق الإسلامية أساسها القرآن الكريم، والسنة النبوية، ففي هذا الباب عرض لبعض معالم الأخلاق الإسلامية من خلال آيات القرآن الكريم، وذلك من خلال ما ورد في سورة آل عمران.

الأخلاق التي أمرنا الله تعالى بالتحلي بها

الأخلاق في آل عمران:

إن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى إلى عباده، الذي يعرفهم به أمور دينهم ودنياهم، فكما أن القرآن ذاخر بالكلام عن العقائد والتشريع، كذلك فهو يدعو النفس البشرية إلى أحسن الأخلاق وأعلاها، ويحثنا على تركية نفوسنا من الشرور.

وقد ذهب الغزالي إلى أن تركية انفس فرض عين على كل مؤمن ولولم يكن متحلياً بالأخلاق الذميمة، فحسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان، ويولد كامل العقل حسن الخلق؛ فيصير عالماً بغير تعليم ومؤدباً بغير تأديب، كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

ثانيهما: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب^(١).

ولتركية النفس وسائل متعددة، منها الصلاة، والصيام، والصدقة، ومن أهم وسائل تركية النفس، إرسال الله تعالى رسله لعباده وهذا ما جاء في آل عمران، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

(١) إحياء علوم الدين، (٣/٥٨).

(٢) آل عمران، ١٦٤.

فضيلة الصبر :

جعل الله عباده المؤمنين بكل منزلة خيراً منه تعالى، فهم دائماً في نعمة من ربهم، سواء أصابهم ما يحبون، أو ما يكرهون، وجعل أقداره التي يقضيها لهم ويقدرها عليهم متاجر يربحون بها، وطرقاً يصلون منها إليه، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له»^(١).

الصبر: (الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف، وصبرت فلاناً: خلفته خلفه لا خروج له منها، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي ربح الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً، ويضاده المذل، وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً)^(٢).

فالصبر وعدم الجزع من الأخلاق التي تكتسب بنوع من الرياضة والمجاهدة، (فهو قوة خلقية من قوى الإرادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات، وهومسك النفس وحبسها عما يكره الله تعالى، وتنشأ من تعظيم أمره، وإيثار رضوانه، والحذر من مقتته تعالى)^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير،

(٢٢٩٥/٤)، حديث رقم (٢٩٩٩).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (ص ٥٦٥).

(٣) حدائق الأولياء: سراج الدين عمر بن علي الأندلسي، اعتنى به: يوسف أحمد، (٧٢/١)،

ط ١، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.

فضيلة الصبر في آل عمران:

ذكر الله تعالى لفظ الصبر في مواضع مختلفة من الآيات، قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(١)، والمراد كونهم صابرين في أداء كل ما أمروا به وفي ترك كل ما نهوا عنه، كذلك صبرهم في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد، وذلك بأن لا يجزعوا بل يكونوا راضين في قلوبهم بما قضى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢)، فجعل الله تعالى الصبر على ملاقة الأعداء شرطاً في ضمان النصر والمدد لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)، (فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: أنا ربكم الأعلى، ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه؛ فالعبودية شاقة على النفس مطلقاً، ومن العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

(١) آل عمران، ١٧.

(٢) آل عمران، ١٢٥.

(٣) آل عمران، ١٤٢.

الحالة الأولى: قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن

شوائب الرياء ودواعي الآفات

وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد.

والحالة الثانية حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل

عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ وهذا أيضا من شدائد الصبر.

والحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه

والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره^(١).

والمراد في الآية الكريمة أن حب الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة، إذا زاد أحدهما نقص الآخر، فسعادة الآخرة لا تتحصل إلا بفراغ القلب من حب الدنيا، وسعادة الدنيا لا تتحقق إلا بالإقبال عليها، بطلب الدنيا، وهذان الأمران مما لا يجتمعان، (فلهذا السر وقع الاستبعاد الشديد في هذه الآية من اجتماعهما، وأيضا حب الله وحب الآخرة لا يتم بالدعوى، فليس كل من أقر بدين الله كان صادقا، ولكن الفصل فيه تسليط المكروهات والمحبوبات، فإن الحب هو الذي لا ينقص الجفاء ولا يزداد بالوفاء، فإن بقي الحب عند تسليط أسباب البلاء ظهر أن ذلك الحب كان حقيقيا، فلهذه الحكمة قال: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة)^(٢).

(١) إحياء علوم الدين، (٧٠/٤).

(٢) مفاتيح الغيب، (٣٧٦/٩).

ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، وهذا دليل على إيجاب معيته وحبهِ ﷺ لهم، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، وليست معية عامة وإنما هي معية العلم والإحاطة.

وقوله تعالى: ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢)، فدل هذا النص على أن المصائب المؤلمة في الأنفس، والأموال قد تكون نوعاً من الامتحان في هذه الحياة الدنيا، وقد أرشد هذا النص إلى التحلي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب، فإن فعلوا ذلك كان ذلك من عزم الأمور.

والمقصود بعزم الأمور: (أي من صواب التدبير الذي لا شك في ظهور الرشد فيه، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه، فتأخذ نفسه لا محالة به)^(٣). وقد اختتم الله ﷻ السورة الكريمة بالحث على الصبر والمداومة عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾^(٤)، فالله تعالى ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان: منها ما يتعلق به وحده، ومنها ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره، أما القسم الأول فلا بد فيه من الصبر، وأما القسم الثاني فلا بد فيه من المصابرة.

(١) آل عمران، ١٤٦.

(٢) آل عمران، ١٨٦.

(٣) مفاتيح الغيب، (٩/٤٥٥).

(٤) آل عمران، ٢٠٠.

والصبر يندرج تحته أنواع: أولها: أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١)، كذلك عدم الخوض في المتشابهات في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، التي تعلمنا أن في كتاب الله تعالى آيات محكمات، يجب الإيمان بها، وأخرى متشابهات يجب الإيمان بها وتفويض تأويلها إلى الله تعالى وإلى أهل العلم، وأيضاً الابتعاد عن أهل الزيغ والضلال الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ومجاهدة النفس والصبر على ذلك.

وثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات، وذلك في قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(٣).
وثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات، ورابعها: الصبر على شدائد الدنيا وآفاتهما من المرض والفقر والقحط والخوف.

(١) آل عمران، ١٩١.

(٢) إن لفظي (التربية) و(الأخلاق) بينهما عموم وخصوص؛ فمتى ذكر لفظ (التربية) دلت على تربية النفس وتهذيبها، ومتى ذكر لفظ (الأخلاق) دل على الصفات الحسنة التي تصدر من الإنسان، لذلك فإن الوزارة المعنية بالتعليم يطلق عليها (وزارة التربية والتعليم) حيث أنهما متلازمان، وهومن أصل ديننا الحنيف، حيث قال □: "إنما بعثت لأتمم صالحى الأخلاق". أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: حسن الخلق، (١/٤٣)، حديث رقم (٢٧٣).

(٣) آل عمران، ١٧.

(وأما المصابرة فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بينه وبين الغير، ويدخل فيه تحمل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والجيران والأقارب، ويدخل فيه ترك الانتقام ممن أساء إليك، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المقدم عليه ربما وصل إليه بسببه ضرر، ويدخل فيه الجهاد فإنه تعريض النفس للهلاك، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين، وحل شكوكهم والجواب عن شبههم، والاحتياط في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم، فثبت أن قوله اصبروا تناول كل ما تعلق به وحده وصابروا تناول كل ما كان مشتركاً بينه وبين غيره)^(١).

فضيلة الصدق

الصدق: في اللغة: (مطابقة الحكم للواقع، وفي الاصطلاح: قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل: أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب، وأن ألا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب، وهو ضد الكذب، وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان)^(١).

(ولفظ الصدق قد يجري على القول والفعل والنية، فالصدق في القول مشهور، وهو مجانبة الكذب والصدق في الفعل الإتيان به وترك الانصراف عنه قبل تمامه، يقال: صدق فلان في القتال وصدق في الحملة، ويقال في ضده: كذب في القتال، وكذب في الحملة، والصدق في النية إمضاء العزم والإقامة عليه حتى يبلغ الفعل)^(٢).

ويعتبر خلق الصدق من أهم الأخلاق التي تبنى عليها الأمم والجماعات، لأن المجتمع لا بد أن يتفاهم أفراداه مع بعضهم البعض، ولا يتحقق ذلك إلا بصدقهم في جميع أحوالهم.

والمسلم الحق لا يعتبر الصدق خلقاً فاضلاً يجب أن يتحلى به، بل يجب عليه أن يؤمن بأن الصدق من متممات إيمانه، ومكملات إسلامه، فهو أمر الله تعالى، وقد أثنى الله تعالى على أنبيائه ورسله ووصفهم بالصادقين، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٣)، وقال أيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤)، وقد وصف نبينا محمد ﷺ بالصادق الأمين حتى قبل بعثته، ولقب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه (بالصديق).

(١) التعريفات، (ص ١٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب، (١٦٦/٧).

(٣) مريم، ٤١.

(٤) مريم، ٥٦.

وفي آل عمران جاء على لسان سيدنا عيسى — عليه السلام — تصديقه للتوراة، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾^(١)، والمصدق: (المخبر بصدق غيره، وأدخلت اللام على المفعول للتقوية، للدلالة على تصديق مثبت محقق، أي مصدقاً تصديقاً لا يشوبه شك ولا نسبة إلى خطأ)^(٢).

والصدق ليس المقصود به صدق القول فقط، فقد قسمها الغزالي إلى ستة أقسام فقال: اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق^(٣).

الصدق في سورة آل عمران:

للفظ الصدق في القرآن استعمالان هما: الصدق في القول، والصدق في السلوك.

فالصدق في القول معناه: (مطابقة الكلام للواقع، فإذا قلنا أن الكلام صادق فإنه يعني مطابقته للواقع حتى لو لم يعتقد القائل به ويعتقد أنه كذب. والصدق في السلوك: معناه تطابق أعمال الإنسان وسلوكه مع قوله واعتقاده، أي يكون سلوك الإنسان مصدقاً لقوله واعتقاده وإن لم يتكلم)^(٤)، وذلك

(١) آل عمران، ٥٠.

(٢) التحرير والتنوير، (٢٥٣/٣).

(٣) إحياء علوم الدين، (٣٨٨/٤).

(٤) الأخلاق في القرآن الكريم: محمد تقي مصباح اليزدي، تحقيق: محمد حسين اسكندري،

(٣/٤٤٤)، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٢٥هـ.

مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَالصَّادِقِينَ} ^(١)، والمقصود الصادقون في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم، يترجمون عنه بكل شيء حميد وخلق عال ^(٢). وقال أيضاً: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٣)، وذلك لأن اليهود كانوا ينكرون دين سيدنا محمد ﷺ، وكانوا ينكرون نسخ الشرائع، واحتجوا أن لحم الإبل ولبنها حرام، وأن ذلك ورد في التوراة والإنجيل، فتحداهم الله تعالى أن يأتوا بما قالوا ويؤكدوا صدق كلامهم، فلم يستطيعوا.

فقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ يحتمل وجوها:

أحدها: (قل صدق في أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم، فصح القول بالنسخ، وبطلت شبهة اليهود.

وثانيها: صدق الله في قوله إن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم — عليه السلام — وإنما حرمت على بني إسرائيل لأن إسرائيل حرّمها على نفسه، فثبت أن محمداً ﷺ لما أفتى بحل لحوم الإبل وألبانها، فقد أفتى بملة إبراهيم.

وثالثها: صدق الله في أن سائر الأطعمة كانت محللة لبني إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم) ^(٤).

وقد ذم الله تعالى اليهود في السورة الكريمة لكذبهم وعدم قولهم الصدق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنُوا أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ

(١) آل عمران، ١٧.

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٣/١٧٣).

(٣) آل عمران، ٩٥.

(٤) مفاتيح الغيب، (٨/٢٩٤).

مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾، وذلك لأنهم يقولون كلام كذب مخالف ما يعتقدون، وهم يعلمون أن كلامهم كاذب وغير صادق.

فالصدق منهج تربوي إسلامي، وهو من أهم الفضائل التي دعا لها الدين الإسلامي، وقد حثنا النبي صلى الله تعالى على التحلي بالصدق، قال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٢)، فالصادق ينتفع بصدقه في الدنيا والآخرة.

(١) آل عمران، ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: باب قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، (٢٥/٨)، حديث رقم (٦٠٩٤).

فضيلة الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة:

إن الوفاء بالعهد من أكثر القيم الاجتماعية بدهة، وهويحظى بإقرار عام ويتفق عليه جميع العقلاء.

معنى الوفاء: (هو ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلفاء)^(١)، فهو خلق من أخلاق الإسلام التي يحرص عليها المسلم، والوفاء هو ثبوت الإنسان على قوله وفعله.

معنى العهد: (الموثق واليمين يحلف بها الرجل، تقول: على عهد الله وميثاقه)^(٢).

فهو خلق من أخلاق الإسلام التي يحرص عليها المسلم، والوفاء هو ثبوت الإنسان على قوله وفعله.

الوفاء في سورة آل عمران^(٣):

الوفاء في القرآن الكريم نوعين: الوفاء الحسي: وهو إتمام الشيء والإيفاء به، ويكون في أداء التكاليف الشرعية من عقود وعهود.

الوفاء المعنوي: وهو الذي يتعلق بجانب التعامل مع الآخرين من صلة، وبر بالوالدين، وحسن تعامل مع الناس^(٤).

(١) التعريفات، (ص ٢٥٣).

(٢) ينظر: تاج العروس، (٤٤٢/٢).

(٣) عند استقراء آيات الوفاء في القرآن الكريم، نجد أن آيات الوفاء بالعهد في السور المدنية أكثر قليلاً من السور المكية، وذلك لأن طبيعة الدعوة إلى الله في المدينة كان بها الكثير من الغدر والخيانة من اليهود، أكثر مما كانت عليه في مكة، وذلك لأن الدين الإسلامي انتشر وزادت رفقته مما أدى إلى زيادة الغدر والمنافقين من غير المسلمين.

(٤) الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب: سعود عبد الحزيمي، (ص ٢٠٢٧)، القاهرة،

ونستخلص مما سبق أن للوفاء أربعة أنواع: الوفاء مع الله تعالى، الوفاء مع الرسول ﷺ، الوفاء مع النفس، الوفاء مع الناس.

أولاً: الوفاء مع الله تعالى: وهو من أجل أنواع الوفاء وأقدسها، والمقصود به عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)، ومن الآثار المترتبة على الوفاء بالعهد مع الله تعالى الواردة في السورة، حب الله تعالى لمن أوفى بالعهد مع الله، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢)، كذلك نصر الله لهم في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣)، أما الكافرون الذين لم يؤمنوا بالله تعالى ولم يصدقوا برسوله؛ فسوف يوفيههم الله تعالى العذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤).

ثانياً: الوفاء مع الرسول ﷺ: ويكون بطاعته ومحبته والتزام أوامره، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥).

ثالثاً: الوفاء مع النفس، بتهذيبها وإلزامها بما أمرنا الله تعالى ورسولنا به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٦).

(١) آل عمران، ٣١.

(٢) آل عمران، ٧٦.

(٣) آل عمران، ١٢٣.

(٤) آل عمران، ٢٥.

(٥) آل عمران، ١٣٢.

(٦) آل عمران، ١٦.

رابعاً: الوفاء مع الناس، وذلك بأن يفي الإنسان بوعده، سواء كان هذا الإيفاء بالقول أو بالفعل، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، (فهذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد، وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأم الله، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً، لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله، ولما أمر الله به، كان الوفاء به تعظيماً لأمر الله، فثبت أن العبارة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضاً في حق النفس لأن الوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات، لأن عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب)^(٢).

(١) آل عمران، ٧٦.

(٢) مفاتيح الغيب، (٢٦٥/٨).

أداء الأمانة

تعريف الأمانة لغة: (الأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)، أي: ما ائتمنتم عليه)^(٢).

واصطلاحاً: الأمانة: (كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدي، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار، وهي كل ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة)^(٣).

أما أداء الأمانة فالمقصود به: (التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره، وما يوثق به عليه من الأعراض والحرم مع القدرة عليه، ورد ما يستودع إلى مودعه)^(٤).

فالأمانة من أبرز أخلاق الرسل - عليهم الصلاة والسلام، وقد وصفهم الله تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾^(٥)، ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الأمين، وكان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، وجبريل

(١) الأنفال، ٢٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (٤٨/١).

(٣) الكليات، (ص ١٧٦).

(٤) تهذيب الأخلاق: أبو عثمان عمرو بن الجاحظ: علق عليه: إبراهيم بن محمد، (ص ٢٤)،

ط ١، دار الصحابة للتراث، ١٤١٠هـ.

(٥) الشعراء، ١٠٦-١٠٧.

﴿أَمِينُ الْوَحْيِ﴾، وقد وصفه الله بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)﴾ (١).

الأمانة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً﴾ (٢)، وهذا النوع من الأمانة يندرج في ما يؤتمن عليه الإنسان من ودائع ونحوها.

لقد أنصف القرآن في وصف أهل الكتاب، فمنهم طائفة تؤتمن على الأموال القليلة والكثيرة، والودائع أو الأمانات، مثل عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً، فأداها إليه، ومثل السموعل بن عاديّا اليهودي المشهور بالوفاء.

ومنهم طائفة أخرى تخون الأمانة، وإن كانت قليلة، ويتعذر استردادها منهم إلا بمتابعة المطالبة والتحصيل، أو باللجوء إلى التقاضي والمحكمة وإقامة البينة عليهم.

(والذي حمل هذه الطائفة من اليهود على الخيانة: زعمهم أن التوراة تبيح لهم أكل أموال الأُميين وهم العرب، قائلين: إنه لا تبعه ولا إثم عليهم في أكل أموال العرب بل وكل ما عدا اليهود، إذ هم شعب الله المختار، فلهم السمو والتفوق العنصري على غيرهم، وأما من سواهم فلا حرمة له عند الله، فهو مبعوض عنده، محتقر لديه، ولا حق له ولا حرمة، وذلك لأن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام، وأسلم من أسلم من العرب، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد) (٣).

(١) الشعراء، ١٩٢-١٩٣.

(٢) آل عمران، ٧٥.

(٣) البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، (٥٢٣/٢)، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٢هـ.

قالآية السابقة تؤكد أن الأمانة ذات جذور أصلية في فطرة الإنسان، ثم تأتي الخلقية القويمة التي ينشأ عليها الإنسان فتدعم أصل فطرته، حتى تصبح الأمانة خلقاً أصيلاً في نفس المؤمن، لذلك نجد أن أهل الكتاب من اليهود لأن في فطرتهم الكذب والافتراء على الله تعالى، قد انحرفوا عن طريق الحق في الأمانة، وبرروا لأنفسهم أنهم أصحاب الحق في ذلك.

(والمراد من ذكر القنطار والدينار هاهنا العدد الكثير والعدد القليل، يعني أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو أوتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو أوتمن على الشيء القليل، فإنه يجوز فيه الخيانة)^(١).

فضيلة الإنفاق في سبيل الله تعالى

إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن حب الأموال أعظم فتنها، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١)، وأعظم فتنه فيها أنه لا غنى لأحد من البشر عنه، فإن فقد المال يحصل معه الفقر الذي يوصل إلى اليأس، وإن وجد المال قد يحصل منه الطغيان والتجبر، لذلك أوجب الإسلام على المسلمين الإسهام بالإنفاق في سبيل الله تعالى، لما له من مصلحة كبيرة للفرد والمجتمع، لأنه يحقق التوازن في الإقتصاد، لذلك فرض الله علينا الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وتعطى للفقراء، كما جعل هناك مصادر أخرى متنوعة للصدقة والإنفاق.

معنى الإنفاق: لغة: (مصدر أنفق، يقال: أنفق إنفاقاً فهو منفق، وتدور هذه المادة حول معنيين أحدهما يدل على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه، وصفة الإنفاق إنما هي من المعنى الأول، يقال نفق الشيء: فني، وأنفق الرجل افتقر أي ذهب ما عنده) (٢). وفي الاصطلاح: (هو صرف المال إلى الحاجة) (٣).

فهذا الخلق من الأخلاق الإسلامية يتمحور حول الشئون المالية، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين، المجموعة الأولى: القائمة على أساس العدل، والمجموعة الثانية: القائمة على أساس الإحسان.

(١) آل عمران، ١٤.

(٢) لسان العرب، (٨/٤٥٨).

(٣) الكليات، (ص ١٨٩). التعريفات، ٣٩.

المجموعة الأولى: القائمة على أساس العدل، والمقصود بها عدم الجور على حقوق الغير المالية، ولها صور متعددة منها ما هو خفي مثل: أكل مال اليتيم، والغش والتدليس، والتطفيف في الميزان، وأكل الربا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)، فدلّت الآية على تحريم الربا من نواح أربعة: (النهى عنه لا تأكلوا الربا واتقوا الله في أموال الربا فلا تأكلوا، والوعيد لمن استحل الربا بالنار، ومن استحل الربا فإنه يكفر، والأمر بإطاعة الله في تحريم الربا، وإطاعة الرسول فيما بلغ الناس من التحريم، كي يرحمهم الله) (٢).

ومنها ما هو واضح مثل: السرقة والنهب، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣). أما المجموعة الثانية: القائمة على أساس الإحسان، والمقصود أن أفراد هذه المجموعة يؤدي فيها بعض الأطراف مصالح مالية للطرف الآخر دون انتظار مقابل منه، ولما كانت فطرة الإنسان قد جبلت على حب المال، كان عطاء المال في سبيل الله تعالى من أكبر الفضائل.

الإِنْفَاقُ فِي آلِ عِمْرَانَ:

وصف الله تعالى عباده المؤمنين بعدة صفات، منها الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (٤)، وكونهم منفقين يدخل فيه إِنْفَاقُ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، وَعَلَى أَقَارِبِهِ وَصَلَةِ رَحْمِهِ وَالزَّكَاةَ وَالصَّدَقَةَ وَكُلَّ أَوْجِهٍ الْبَرِّ وَالْخَيْرِ.

(١) آل عمران، ١٣٠.

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٩٠/٤).

(٣) المائدة، ٣٨.

(٤) آل عمران، ١٧.

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(١)، فهذه الآية تدل على أن مرتبة البر في الإنفاق لاتنال إلا بتعمد المسلم أن ينفق في سبيل الله مما يحب، ومن المعلوم أن الإنسان يحب من أمواله أنفسها وأحسنها.

(وهذه مرتبة صعبة على النفس، لاينالها الإنسان إلا بقهر الهوى، أو بفطرة عالية تحب العطاء أكثر مما تحب التملك، لذلك كان أفضل الإنفاق الإنفاق مما يحب الإنسان)^(٢)، قال ﷺ عندما سئل عن أي العمل أفضل: قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله»، قلت: فأَي الرقاب أفضل؟ قال: «أعلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»^(٣). والبر: (خير الدنيا والآخرة؛ فخير الدنيا ما ييسره الله تعالى للعبد من الهدى والنعمة والخيرات، وخير الآخرة الفوز بالنعيم الدائم في الجنة)^(٤).

فدرجة البر من أعلى الدرجات، فلا يصل إليها المسلم إلا بعد مجاهدة للنفس، وإيثار للآخرة على علائق الدنيا وزينتها، فمن أعظم الإنفاق، الإنفاق من أطيب الأموال وأزكاها، فإن النفقة من الطيب المحبب إلى النفس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقدير محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها.

(والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاق منه أي التصدق دليل على سخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك

(١) آل عمران، ٩٢.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، (٢/٤٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العتق، باب: أي الرقاب أفضل، (٣/١٤٤)، حديث رقم (٢٥١٨).

(٤) تاج العروس، (١٠/١٥١).

تزكية للنفس من بقية ما فيها من الشح، وفي ذلك صلاح عظيم للأمة إذ تجود أغنيائها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال فتشتد بذلك أوامر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع^(١).

ولما كان الصحابة يسارعون إلى طاعة الله ورسوله، فلما نزلت الآية كان أبو طلحة^(٢) أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه ببرحاء (٣) - وكانت مستقبله المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي ببرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى، فقال النبي ﷺ: "بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين". فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(٤).

(١) التحرير والتنوير، (٥/٤).

(٢) اسمه زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو ابن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري النجاري الخزرجي.

شهد العقبة، ثم شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وكان آدم مربوعاً، وكان من الرماة المذكورين من الصحابة، وروى أن رسول الله ﷺ قال: لصوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل، وفي معركة أحد كان أبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرفع رأسه من خلف أبي طلحة ليرى مواقع النبل. قال: وكان أبو طلحة يتناول بصدره يقي به رسول الله ﷺ ويقول: نحري دون نحرك. واختلف في وقت وفاته فقيل: توفي سنة إحدى وثلاثين، وقيل: توفي سنة أربع وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (٤/١٦٩٩).

(٣) المقصود بها: اسم حديقة في المدينة كان يملكها أبو طلحة، وكان فيها نخل.

(٤) تفسير القرآن العظيم، (٧٣/٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾^(١)، وهذه الآية تندرج تحت التطوع بالصدقة، والصدقة في الإسلام لا تنحصر في إعطاء المال فقط، بل يدخل فيها إطعام الطعام، وكسوة الثياب، وتقديم الدواء ونحو ذلك. والمعنى أنهم في ينفقون في حال كونهم أغنياء أو فقراء، (فهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس، وذلك لأن الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه، وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين)^(٢).

وكما حث الله تعالى المؤمنين على الإنفاق والبذل في سبيل الله تعالى، ووعدهم بالجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه أيضاً توعّد الكافرين بالعقاب في الآخرة حتى لو كانوا من أهل الإنفاق والخير في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)، فهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه

(١) آل عمران، ١٣٤.

(٢) مفاتيح الغيب، (٣٦٦/٩).

(٣) آل عمران، ١١٧.

احتج المعتزلة بهذه الآية على صحة القول بالإحباط، وذلك لأنه كما أن هذه الريح تهلك الحرت فكذلك الكفر يهلك الإنفاق، وهذا إنما يصح إذا قلنا: إنه لولا الكفر لكان ذلك الإنفاق موجباً لمنافع الآخرة وحينئذ يصح القول بالإحباط، وأجاب الأشاعرة عنه بأن العمل لا يستلزم الثواب إلا بحكم الوعد، والوعد من الله مشروط بحصول الإيمان، فإذا حصل الكفر فأت المشروط لفوات شرطه لأن الكفر أزاله بعد ثبوته.

الخيرات، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة، وبين أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله. (والمقصود بالتشبيه في الآية، أنهم زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقته، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وعلى هذا التفسير يتأكد وجه التشبيه، فإن من زرع لا في موضعه ولا في وقته يضيع، ثم إذا أصابته الريح الباردة كان أولى بأن يصير ضائعاً، فكذا هاهنا الكفار لما أتوا بالإنفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه شؤم كفرهم امتنع أن لا يصير ضائعاً)^(١). فالإنفاق في سبيل الله من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو دليل حسن الظن بالله والثقة به، لأن الله تعالى هو الرزاق، كما أنه سبب لنيل حب الله تعالى وتركية النفس، وهو طريق موصل إلى الجنة.

فضيلة تقوى الله تعالى :

تعريف التقوى لغة: (الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، تقول: وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته من الأذى، وتوقى، واتقى بمعنى. والوقاء والوقاء والوقاية: كل ما وفيت به شيئاً، ووقاك الله شر فلان وقاية، أي: حفظك)(^(١)).

تعريف التقوى في الاصطلاح: (التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحذور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات)(^(٢)).

فالتقوى مجانبية ما يبعد عن الله بالحذر منه، ومن حققها هون على قلبه الإعراض عن الدنيا، وزال الاعتراض، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (^(٣))، وواجب تقواه أن يطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على أبيه وابنه(^(٤)).

فإن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالمواظبة على التقوى، ثم أعلمهم أنه يعلم ما في صدورهم من الأسرار والخواطر، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (^(٥)).

(١) لسان العرب، (٣/٩٧١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (٢/٥٣٠).

(٣) آل عمران، ١٠٢.

(٤) حدائق الأولياء، (١/٩١).

(٥) المائدة، ٧.

التقوى في آل عمران:

ذكر تقوى الله في السورة في أكثر من موضع مختلف، وتنوعت في معانيها، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(١)، فالإنسان لا يكون متقياً إلا إذا كان آتياً بالواجبات، متحرزاً عن المحظورات، والتوقي عبارة عن اتقاء الشرك، وذلك لأن التقوى صارت في عرف القرآن مختصة بالإيمان، (والتقدير: للذين اتقوا عند ربهم خير من منافع الدنيا ويكون ذلك إشارة إلى أن هذا الثواب العظيم لا يحصل إلا لمن كان متقياً عند الله تعالى، فيخرج عنه المنافق، ويدخل فيه من كان مؤمناً في علم الله)^(٢).

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٣)، وهذه دعوة سيدنا عيسى ﷺ لبني إسرائيل، وذلك لأنه جاء مقررًا لشرعية سيدنا موسى ﷺ، وأحل لهم ما حرم الرهبان عليهم من غير دليل؛ فأمرهم بتقوى الله تعالى وطاعته، وذلك لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما أمركم به عن ربي.

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، فهذا التقوى مرتبطة بالوفاء بالعهد والأمانة، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٥)، (فالتقوى امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال

(١) آل عمران، ١٥.

(٢) مفاتيح الغيب، (١٦٤/٧).

(٣) آل عمران، ٥٠.

(٤) آل عمران، ٧٦.

(٥) آل عمران، ١٠٢.

الظاهرة، والنوايا الباطنة. وحق التقوى هو أن لا يكون فيها تقصير، وتظاهر بما ليس من عمله^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، فقله عليم بالمتقين مع أنه عالم بالكل بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾^(٣)، وقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾^(٤)، فالذي يقوم بالتقوى مخافة لله، وعملاً بالصالحات، وتركاً للمحرمات، لا بد له من الصبر، فإن الذين لا يصبرون، لا يستطيعون الإتيان بالعبادات على وجهها، ولا يطبقون الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولذا فإن الله تعالى ذكر "الصبر والتقوى" جميعاً في غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة^(٥).

وقرن أيضاً الصبر والتقوى^(٦) في موضع آخر من السورة حيث قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٧)، (فالصبر عبارة عن احتمال

(١) التحرير والتنوير، (٤/٣٠).

(٢) آل عمران، ١١٥.

(٣) آل عمران، ١٢٠.

(٤) آل عمران، ١٢٥.

(٥) التقوى «تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها»: عمر بن سليمان الأشقر، (ص ٦٩)، ط ١، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٣٣هـ.

(٦) ذكرت الارتباط بين خلق الصبر والتقوى هنا ولم أذكره عند الحديث عن الصبر، لأنني لم أكن قد تعرضت لخلق التقوى بالشرح والتوضيح.

(٧) آل عمران، ١٨٦.

احتمال المكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي؛ فقدم ذكر الصبر ثم ذكر عقبه التقوى، لأن الإنسان إنما يقدم على الصبر لأجل أنه يريد الاتقاء عما لا ينبغي، كما أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر قليلاً لمضار الدنيا، وأمر بالتقوى قليلاً قليلاً لمضار الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة^(١).

وقال أيضاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، فاتقاء الله في هذا النهي واجب، والفلاح يتوقف عليه، فلو أكل الربا ولم يتق الله — عز وجل — زال ذلك الفلاح.

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، فقد أمرنا ربنا ﷻ في ذلك الموضع بأن نسارع إلى مغفرة من ربنا، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ثم عرفنا بالمتقين ببيان الأعمال التي يقومون بها، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾^(٤)، فذكر الله تعالى في هذه الآيات أن أعمال المتقين أربعة، الأول: إنفاقهم المال في السراء والضراء، وهذا عمل مالي من أعمال الظاهر، والثاني والثالث عملان أخلاقيان،

(١) مفاتيح الغيب، (٤٥٥/٩).

(٢) آل عمران، ١٣٠.

(٣) آل عمران، ١٣٣.

(٤) آل عمران، ١٣٤-١٣٥.

وهما كظم الغيب والعفو عن الناس، الرابع: أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم استغفروا لذنوبهم.

ويظهر من هذا العرض أن التقوى شاملة لمخافة الله التي تدفع صاحبها للقيام بكل الأعمال الصالحة التي أمر الله ﷻ بها، وترك الأعمال السيئة التي نهى الله عنها، لذلك قال تعالى بعد أن بين صفات المتقين والنعيم الذي أعده لهم:

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)، وسبب نزول هذه الآية: أن أبا سفيان (٣) وأصحابه لما انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء (٤) ندموا، وقالوا إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فلم تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم، فهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أن يهرب الكفار

(١) آل عمران، ١٣٨.

(٢) آل عمران، ١٧٢.

(٣) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سفيان القرشي الأموي، وأمه صفية بنت حزن الهلالية.

أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنيناً، وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية، كما أعطى سائر المؤلفة قلوبهم، وأعطى ابنه: يزيد، ومعاوية، فقال له أبو سفيان: والله إنك لكريم، فداك أبي وأمي! والله لقد حاربك فنعم المحارب كنت، ولقد سالمك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً وشهد الطائف، ورمي بسهم، ففقت عينه الواحدة، واستعمله النبي ﷺ على نجران، فمات النبي ﷺ وهو وال عليها، ورجع إلى مكة فسكنها برهة، ثم رجع إلى المدينة فمات بها. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (٢/٧١٤).

(٤) الروحاء: هو وادي بين مكة والمدينة، على نحو أربعين ميلاً من المدينة، وهو الموضع الذي نزل به تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، فأقام بها وأراح فسمّاها الروحاء. ينظر: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (٢/٦٣٧)، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة، فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان وقال: لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال، فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه، قيل كانوا سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد^(١)، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا.

(فقوله: للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم وجوه: الأول: أحسنوا دخل تحته الائتمار بجميع الأمور، وقوله: واتقوا دخل تحته الانتهاء عن جميع المنهيات، والمكلف عند هذين الأمرين يستحق الثواب العظيم. الثاني: أحسنوا في طاعة الرسول في ذلك الوقت، واتقوا الله في التخلف عن الرسول، وذلك يدل على أنه يلزمهم الاستجابة للرسول وإن بلغ الأمر بهم في الجراحات ما بلغ من بعد أن يتمكنوا معه من النهوض)^(٢).

وقال أيضاً: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣). وأختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤)، وتام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هوالتقوى، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة، وذلك عبارة عن الإتيان بالأفعال الحسنة، والاحتراز عن الأفعال الذميمة، ولما كانت الأفعال صادرة عن القوى أمر

(١) حمراء الأسد: تأنيث أحمر، مضافة إلى الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة، وإليها انتهى رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من يوم أحد، لما بلغه أن قريشاً منصرفون إلى المدينة، فأقام بحمراء الأسد يومين حتى علم أن قريشاً قد استمرت إلى مكة. ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبد الله البكري الأندلسي، (٢/٤٦٨)، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٢) مفاتيح الغيب، (٩/٤٣٢).

(٣) آل عمران، ١٧٩.

(٤) آل عمران، ٢٠٠.

بعد ذلك بمجاهدة القوى التي هي مصادر الأفعال الذميمة، وذلك هو المراد بالمرابطة، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات، وذلك هو تقوى الله، ثم ذكر ما لأجله وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق، وهو الفلاح، فظهر أن هذه الآية التي هي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية، وأنها على اختصارها كالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع^(١).

ومما سبق يتبين لنا أن التقوى اجتناب كل ما تخاف منه ضرراً في دينك، وأما تحديدها على موضوع علم الشريعة فهو تبرئة القلب من شر لم يسبق منك مثله لقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر سواء شراً أصلياً أو شراً غير أصلي، وهي ما نهى عنه تأديباً، وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشبهات فالأولى يوجب تركها عذاب النار والثانية يوجب تركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن جمع بينهما فقد استكمل حق التقوى وجمع كل.

فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المعروف لغة: (كالعرف وهو ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه. والمنكر من الأمر: خلاف المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه، فهو منكر، واستنكره فهو مستنكر، والجمع مناكير)^(١). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اصطلاحاً: الأمر بالمعروف: هو الإرشاد إلى المرائد المنجية، والنهي عن المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة. فالأمر بالمعروف: (الإشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أقوال العبد وأفعاله، والنهي عن المنكر: تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة وهو ما لا يجوز في شرع الله تعالى)^(٢).

وقيل أيضاً: المعروف: (كل ما تعرفه النفوس وتستحسنه العقول من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وهي التي كانت لم تزل مستحسنة في كل زمان وعند أهل كل ملة، فلا تزال كذلك لا يجري عليها النسخ، ولا يجوز فيها التبديل. والمنكر: ضد المعروف، وهو اسم جامع لكل ما قبحه الشرع وحرمه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة)^(٣).

قال الإمام الغزالي: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة،

(١) لسان العرب، (٢٣٢/٥).

(٢) التعريفات، (ص ٣٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، (١١٥/٥).

وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد^(١).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في آل عمران:

دلت الآيات القرآنية على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أمر ملزم لكل مسلم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٢)، (ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ} أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، إذ حصر وقال: وأولئك هم المفلحون، وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين؛ إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ولتكن منكم أمة، فإذا قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة^(٣)).

فالفلاح مكسب عظيم للإنسان، فهو يفوز بالفلاح في الدنيا بالحياة الطيبة السعيدة، وفي الآخرة بالجنة ونعيمها.

فهذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء:

أولها: الدعوة إلى الخير، ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة، أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله، وصفاته، وتقديسه عن مشابهة الممكنات؛ فالدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف. والثاني:

(١) إحياء علوم الدين، (٢/٣٠٦).

(٢) آل عمران، ١٠٤.

(٣) إحياء علوم الدين، (٢/٣٠٧).

الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر؛ فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان^(١).

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، فجعل الله تعالى خيرية هذه الأمة على سائر الأمم بسبب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

(فإن إصلاح المعاش والمعاد إنما هو بطاعة الله ورسوله وامتنثال أوامره والانتهاء عن زواجره، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس)^(٣).

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤)، فلم يشهد لهم بالصالح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أمرنا رسولنا الكريم بالتمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأحاديث الواردة في فضله كثيرة جداً، منها قوله ﷺ: «على كل مسلم صدقة» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيأمر

(١) مفاتيح الغيب، (٣١٥/٨).

(٢) آل عمران، ١١٠.

(٣) لوامع الأنوار البهية، (٤٢٧/٢).

(٤) آل عمران، ١١٤.

بالخير» أو قال: «بالمعروف» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر فإنه له صدقة»^(١).

فالرسول ﷺ في هذا الحديث ندب الأمة إلى نفع الخلق بالتصدق عليهم، صدقة حسية كانت أو معنوية، فمن وجد الحسية فهو خير وإلا تصدق بالمعنوية ففيها خير أيضاً؛ فمن أمكنه أن يعمل بيده فيتصدق وأن يغيث الملهوف وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويمسك عن الشر فليفعل الجميع.

ولا شك أن أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هي أنفع أمة للناس، فالمسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون شخصاً إيجابياً أينما حلّ، ويكون له مردود نفع على من حوله، فمن ساعد الناس بالقول أو الفعل أو بكف الشر والأذى فيدخل في خيرية هذه الأمة، لذلك لعن الله تعالى اليهود على لسان أنبيائه لتواطئهم على المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾^(٢).

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له درجات ومراتب مختلفة:

المرتبة الأولى: (تبدأ من القلب، فعلى كل إنسان إذا لاحظ ارتكاباً للمنكر، أوتركا للمعروف أن يستنكر ذلك في قلبه، وهذا هو مقتضى إيمانه، وذلك لأن آثار الاستنكار والكراهة القلبية تظهر على وجه الإنسان.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: كل معروف صدقة، (١١/٨)، حديث رقم (٦٠٢٢).

(٢) المائدة، ٧٨-٧٩.

المرتبة الثانية: ترتبط بلسانه، أي أن المؤمن لابد أن يظهر تألمه لمرتكب المنكر وتارك المعروف، فينهى ذاك عن المنكر ويأمر هذا بالمعروف.

المرتبة الثالثة: ترتبط بالعمل، حيث يقوم المؤمن بالمنع من ارتكاب المنكر عملياً وبالقوة^(١)، قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

شروط الأمر بالمعروف:

الأول: أن يكون مسلماً، لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

الثاني: وهو العدالة (وهو شرط كمال) لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنك إذا لم ياتمر وينتهي هو، فإن نصيحته في الغالب لا تؤتي ثمارها، فمن لم يكن صالحاً في نفسه، فكيف يصلح غيره؟

لذلك قال بعض العلماء ليس للفاسق أن يأمر بمعروف أو ينهى عن المنكر، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)، (فالفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقالوا أن هذه الآية تدل على أن الأمر

(١) الأخلاق في القرآن، (٣/٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، (١/٦٩)، حديث رقم (٤٩).

(٣) آل عمران، ١١٤.

(٤) آل عمران، ١٠٤.

بالمعروف والناهي عن المنكر من المفلحين، والفاسيق ليس من المفلحين، فوجب أن يكون الأمر بالمعروف ليس بفاسيق، وأجيب عنه: بأن هذا ورد على سبيل الغالب، فإن الظاهر أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد صلاح أحوال نفسه، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير، والعلماء قالوا: الفاسق له أن يأمر بالمعروف لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر ووجب عليه النهي عن ذلك المنكر، فإن ترك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا^(١).

الثالث: (اشتراط البعض أن يكون مأذونا من جهة الإمام والوالي؛ فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للاحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد فإن الآيات والأخبار تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عليه عصي، إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم؛ فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له، وقد لعن الله تعالى بني إسرائيل في القرآن الكريم بسبب عدم نهيه عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾^(٢)، وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أن النفر القليل، فإذا لم يجدوا من يغير عليهم تزايدوا فيها ففشيت واتبع فيها الدهماء بعضهم بعضاً حتى تعم وينسى كونها مناكر فلا يهتدي الناس إلى الإقلاع عنها والتوبة منها فتصيبهم لعنة الله)^(٣).

(١) مفاتيح الغيب، (٨/٣١٥).

(٢) المائدة، ٧٨-٧٩.

(٣) التحرير والتنوير، (٦/٢٩٣).

وقال فيهم رسول الله ﷺ: إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل فيهم يرى أخاه يقع على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾﴾ قال: وكان نبي الله ﷺ متكناً فجلس، فقال: لا، حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه على الحق أطراً، أوليضرين الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم»^(١).

الرابع: القدرة: يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الأمر والناهي قادراً على الأمر والنهي وتغيير المنكر، فإن كان عاجزاً فلا وجوب عليه إلا بقلبه، أي عليه أن يكره المعاصي وينكرها ويقاطع فاعليها. قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، (١٠٣/٥)، حديث رقم (٣٠٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، (٦٩/١)، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث رقم: (٤٩).

لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفندى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، وهوفي ترك الواجب وفعل المحرم واجب، وفي ترك المندوب وفعل المكروه مندوب^(١).

والأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يخرج من عهدة التكليف، وقد جاء في قصة بني إسرائيل حين حذرهم الآمرون بالمعروف عن الاعتداء في السبت، أنهم يحذروهم حتى يبرؤوا أنفسهم أمام الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمَ نَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٢).

النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي الذي توعده الله به من قعد عن هذا الواجب وأهمله، وحينما يحل العذاب بقوم ظالمين فإن الله ينجي الذين ينهون عن السوء، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ (١١٧) ﴿^(٣).

(١) غذاء الأبواب في شرح منظومة الآداب: شمس الدين السفاريني، (١/٢٣٢)، ط ٢، مؤسسة قرطبة - مصر، ١٤١٤هـ.

(٢) الأعراف، ١٦٤.

(٣) هود، ١١٦-١١٧.

التوبة والاستغفار

التوبة مصدر: (تاب يتوب وهو مأخوذ من مادة (ت وب) التي تدل على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه توبة ومتاباً، والوصف منه تائب)^(١). وفي الاصطلاح: (ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة)^(٢). أما التوبة النصوح: (هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله، فالتوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على ألا يعود، وهي هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً)^(٣).

شروط التوبة:

إن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: (أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً؛ فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو، وإن كانت غيبة استحلها منها)^(٤).

(١) مقاييس اللغة، (٣٥٧/١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (ص ٦٧).

(٣) التعريفات، (ص ٧٠).

(٤) رياض الصالحين: محي الدين النووي، تحقيق: ماهر ياسين، (ص ١٤)، ط ١، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ.

التوبة في آل عمران:

إن الآيات التي يحث الله فيها عباده على التوبة في القرآن الكريم كثيرة، وقد استمر نزول هذه الآيات طوال فترة دعوة النبي محمد ﷺ، كما هو حال آيات العقيدة، وذلك لأهمية التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى للمسلم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، فالسرعة المشتق منها سارعوا مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة، والمسارة على التقادير كلها تتعلق بأسباب المغفرة وأسباب دخول الجنة، فتعليقها بذات المغفرة والجنة من تعليق الأحكام بالذوات على إرادة أحوالها عند ظهور عدم الفائدة في التعلق بالذات.

وجيء بصيغة المفاعلة، مجردة عن معنى حصول الفعل من جانبيين، قصد المبالغة في طلب الإسراع، والعرب تأتي بما يدل في الوضع على تكرار الفعل وهم يريدون التأكيد والمبالغة دون التكرير^(٢).

(فوجوب التوبة على الفور لا يستتراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور المتقضي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه؛ فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشرات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهده ما لم يصر باعثاً عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين

(١) آل عمران، ١٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، (٨٩/٤).

يسرق وهو مؤمن»^(١)، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة، كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان ويجب عليه المبادرة إلى التوبة من المعاصي^(٢).

فتجب التوبة على الدوام وفي كل الأحوال، لأن جميع البشر لاتخلوا منهم فعل المعاصي والذنوب، سواء كانت هذه المعصية عن طريق الجوارح، أو عن طريق القلب، أو من وسوسة الشيطان، فهو باستمراره على التوبة يظل متصلاً بالله تعالى حتى يغفر له.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، والإصرار: (الإقامة على الذنب والعزم على فعل مثله)^(٤).

فالإصرار على المعصية وعدم تداركها معصية أخرى، لأن النفس في هذه الحالة تأنس للمعاصي، وتزول منها هيبة الخوف من الله تعالى، ومن الممكن أن يزيد في المعاصي حتى يصل إلى الكبائر.

(والمقصود الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح، وهو الندم على فعل ما مضى مع العز على ترك مثله في المستقبل، فهذا هو حقيقة التوبة، فأما الاستغفار باللسان، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة، وإظهار كونه منقطعاً إلى الله تعالى، وقوله: ومن يغفر الذنوب إلا الله والمقصود منه أن لا يطلب العبد المغفرة إلا منه، وذلك لأنه تعالى هو القادر على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: السارق حين يسرق، (٨/١٥٩)، حديث رقم (٦٧٨٢).

(٢) إحياء علوم الدين، (٤/٧).

(٣) آل عمران، ١٣٥.

(٤) التعريفات الفقهية، (ص ٢٩).

عقاب العبد في الدنيا والآخرة، فكان هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، فصح أنه لا يجوز طلب الاستغفار إلا منه^(١).

أقسام العباد في دوام التوبة:

إن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: (أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات ما لم يكن في رتبة النبوة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة آدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فتخرج كفة الحسنات، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

(١) مفاتيح الغيب، (٣٦٩/٩).

(٢) آل عمران، ١٣٣.

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه بعض الذنوب فيقدم عليها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب، مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهواتان، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاد شرها هذا أمنيته، وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم، فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته؛ فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه، وقد حذر الله تعالى منهم في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) (٤).

(١) آل عمران، ١٣٥.

(٢) التوبة، ١٠٢.

(٣) آل عمران أية ١٣٥..

(٤) احياء علوم الدين، (٤/٤٤-٤٥).

كظم الغيظ^(١) :

كظم الغيظ لغة: (تجرعه واحتمال سببه والصبر عليه)^(٢).

كظم الغيظ اصطلاحاً: (المقصود الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه: كظم فلان غيظه، إذا تجرعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها)^(٣).

كظم الغيظ في آل عمران:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤)، فكظم الغيظ خلق قرآني جعله الله تعالى من صفات المتقين، ووعدهم بمغفرة من ربهم وجنته أعدت لهم.

فإن الله تعالى في هذه الآية بين لنا كيفية التحكم في الغضب، ففي قوله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾، بين من يجاهد نفسه لإخماد نار الغضب، حتى لا ينتقم

(١) إن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموت، بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجه عنه، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركبه فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوة تبعته على تناول الغذاء، ووكل قوى في داخله لجبر ما انكسر وسد ما انتلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها، فافتقر إلى قوة وحمية تثور منه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب، وغرزها في الإنسان وعجنها بطينته، فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثار ثوراناً يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعمال البدن، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين، والبشرة لصفاتها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجية لون ما فيها. ينظر: الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية: أحمد بن يوسف الأهدل، (ص ٨٨)، ط ٢، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٣١هـ.

(٢) لسان العرب، (١٢/٥٢٠).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، (٧/٢١٤).

(٤) آل عمران، ١٣٤.

ممن أذاه، وهذا من ضبط النفس النابع من الإيمان ومراقبة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فهذه درجة أعلى من كظم الغيظ وهي التسامح، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذه درجة أيضاً أعلى من درجة العفو، وهو الإحسان إلى من ظلمك سواء كان هذا الإحسان بالكلام أو الفعل، فمن استطاع أن يكظم غيظه ويعفو ويحسن استحق أن يكون من المتقين بحق.

الفرق بين الغيظ والغضب:

(الغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان لكن هناك فرق بينهما، أن الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما لا بد، ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم)^(١).

فقوة الغضب محلها القلب وتكون لطلب الانتقام، لذلك فإن كظم الغيظ يحتاج إلى إرادة قوية، حتى يستطيع الإنسان أن يسيطر على غضبه، ولا يسمح للهوى الجامح أن يتحكم به وبأفعاله، ولقد حث النبي محمد ﷺ أصحابه على كظم الغيظ، ومن ذلك قوله ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء»^(٢).

(أما الغضب المحمود، وهو الذي ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضميم في غير محله؛ فينبغي

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٤/٢٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، (٤/٣٧٢)، كتاب: أبواب البر والصلة، باب: في كظم الغيظ، حديث رقم: (٢٠٢١).

أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم^(١).

الرفق ولين الجانب

بعد أن تكلمت عن كظم الغيظ الذي حثنا عليه الله تعالى، وما فيه من فوائد، نتحدث عن لين الجانب الذي يعد وسيلة من وسائل كظم الغيظ، فإن الصبر على المسيء، من الأسباب التي تدفع المرء إلى كظم الغيظ عنه والرفق به، وبهذا تجتمع كلمة الناس، لأن الناس لا يجتمعون إلا بالرفق واللين.

اللين لغة: (مصدر: لان يلين، وهو مأخوذ من مادة (ل ي ن) التي تدل على خلاف الخشونة، يقال: هو في ليان من عيشه أي نعمة، وفلان ملينة أي لين الجانب)^(٢).

اصطلاحاً: (هوسهولة الانقياد للحق، والتلطف في معاملة الناس وعند التحدث إليهم، وهولين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف)^(٣). واللين من الصفات والقيم الأخلاقية في مجال الكلام، وهو في مقابل الفظاظة والحدة، ولهاتين الصفتين التضادتين جانبين:

الأول: (الجانب الروحي والنفسي، ويؤثر في الكيفية المعنوية للكلام وانتخاب العبارات وأسلوب المواجهة مع الخاطب.

الثاني: هو الجانب الصوري والظاهري للكلام، والذي يؤثر في لحنه والإطالة فيه أو الاختصار)^(٤).

(١) إحياء علوم الدين، (٣/١٦٧-١٦٩) بتصرف.

(٢) مقاييس اللغة، (٥/٢٢٥).

(٣) فتح الباري، (١٠/٤٤٩).

(٤) الأخلاق في القرآن، (٣/٣٣٢).

ولين الجانب في الكلام أمر به الأنبياء جميعاً ﷺ، فنجد أن الله تعالى أمر سيدنا موسى بلين الجانب مع فرعون، مع شدته وإمعانه في الكفر، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ (١).

اللين في آل عمران:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢).

فالإسلام أوصى بالرفق واللين وحث عليه، واعتبر المحروم منه محروم من خير كثير، وذلك لأن الرفق في الأمور من شأنه أن يصلح ويعطي نتائج أفضل، لذلك أمر الله تعالى رسولنا الكريم ﷺ بالرفق في معاملة الناس، حتى يستطيع أن يؤلف قلوبهم ويكسب مودتهم.

من مظاهر الرفق (٣):

١ - (الرفق بالنفس في أداء ما فرض عليه: المسلم لا يحمل نفسه من العبادة مالا تطيقه فالإسلام دين يسر وسهولة فالمتبع له يوغل فيه برفق، قال ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» (٤).

٢ - الرفق مع الناس عامة: ويكون بلين الجانب وعدم الغلظة والجفاء، والتعامل مع الناس بالسماحة.

٣ - الرفق بالرعية: الراعي سواء كان حاكماً، أو رئيساً، أو مسؤولاً عليه أن يرفق برعيته، فيقضي حاجتهم، ويؤدي مصالحهم برفق.

(١) طه، ٤٤.

(٢) آل عمران، ١٥٩.

(٣) الأخلاق الإسلامية، (٣٥٢/٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، (١٦/١)، حديث رقم (٣٩).

٤- الرفق بالمدعويين: الداعية عليه أن يرفق في دعوته، فيشفق على الناس ولا يشق عليهم، ولا ينفّرهم من الدين بأسلوبه الغليظ والعنيف، وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١).

٥- الرفق بالخادم والمملوك: فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانواهم، قال ﷺ: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق»^(٢).

وقد ضرب الأنبياء ﷺ جميعاً أروع النماذج في لين الجانب في التعامل مع الناس، وفي السورة الكريمة نموذج لسيدنا محمد ﷺ، فقد بينا لنا الله تعالى حال المسلمين في غزوة أحد، وكيف أنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ، مما أدى إلى هزيمتهم في المعركة، واستشهاد عدد كبير من المسلمين، ولكن بالرغم من ذلك لم يعنف الرسول ﷺ أصحابه، وإنما تلقاهم بلين الجانب وطيب الكلام.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فاللين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات، ودل فعل المضي في قوله: لنت على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خلقه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله، فخلق الرسول مناسبة لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله، لأن الرسول يجيء بشرعية

(١) النحل، ١٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، (٣/١٢٨٤)، حديث رقم (١٦٦٢).

يبلغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه، ولا يتأثر بخلق الرسول، وهو أيضاً مأمور بسياسة أمته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم.

(وقد أرسل محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغى الشريعة للعالم.

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استئزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق، وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام^(١).

فاللين والرفق إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز، مثل إقامة حدود الله تعالى لا يكون فيها لين، قال تعالى في حد الزنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٢)، كذلك في جهاد المشركين والكفار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣).

(١) التحرير والتنوير، (١٤٥/٤).

(٢) النور، ٢.

(٣) التوبة، ٧٣.

الشورى

الشورى لغة: (اسم للمشاورة، وكلاهما مأخوذ من مادة (ش و ر) التي تدل على أخذ شيء من شيء)^(١).

واصطلاحاً: (استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها ونعم العدة هي)^(٢).

فالشورى من أصول الحكم الإسلامي، وقد أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ، وفي القرآن الكريم سورة تسمى (الشورى)، أخذاً من وصف المؤمنين بذلك، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(٣).

شروط المستشار: اشترط العلماء لأهلية المستشار أن يكون فيه خمس خصال:

- ١- عقل كامل مع تجربة سالفة فإن بكثرة التجارب تصح الروية، لذلك قال العرب: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره، أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه.
- ٢- أن يكون ذا دين وتقى، فإن ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح. ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة.

(١) مقاييس اللغة، (٣/٢٢٦).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، (ص ٢١٠)، دار السلام-١٤٢٨هـ.

(٣) الشورى، ٣٨.

٣- أن يكون ناصحاً ودوداً، فإن النصيحة والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي. وقال بعض الحكماء: لا تشاور إلا الحازم غير الحسود، واللبيب غير الحقود.

٤- أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وغم شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر.

٥- أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صادم، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد^(١).

الشورى في آل عمران:

قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢).

وفائدة أمر الله تعالى الرسول بمشاورتهم من وجوه:

الأول: (أن مشاورة الرسول ﷺ إياهم توجب علو شأنهم ورفعة درجتهم، وذلك يقتضي شدة محبتهم له وخلوصهم في طاعته، ولو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة بهم فيحصل سوء الخلق والفظاظة.

الثاني: أنه وإن كان أكمل الناس عقلاً إلا أن علوم الخلق متناهية، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا.

الثالث: أمر بذلك ليقندي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته.

(١) أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد، (ص ٣٠١-٣٠٢)، دارمكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

(٢) آل عمران، ١٥٩.

الرابع: أنه شاورهم في واقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج، وكان ميله إلى أن يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقي في قلبه منهم بسبب مشاورتهم بقية أثر؛ فأمره الله تعالى بعد تلك الواقعة بأن يشاورهم ليدل على أنه لم يبق في قلبه أثر من تلك الواقعة.

الخامس: وشاورهم في الأمر، لا لتستفيد منهم رأياً وعلماً، لكن لكي تعلم مقادير عقولهم وأفهامهم ومقادير حُبهم لك وإخلاصهم في طاعتك فحينئذ يتميز عندك الفاضل من المفضول فبين لهم على قدر منازلهم^(١).

حكم الشورى في ضوء الآية الكريمة:

اختلف العلماء في حكم الشورى إلى رأيين، منهم من قال بأنها واجبة، ومنهم من قال بأنها مندوبة.

الفريق الأول: (قالوا بمشروعية الشورى ووجوبها على الحاكم، ومن هؤلاء: الإمام الشافعي^(٢)، وأبو بكر الرازي^(٣)، وابن حجر العسقلاني، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ فهم يرون أن الشورى واجبة على

(١) مفاتيح الغيب، (٤٠٩/٩).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبید بن عبد یزید بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي المطلبی الشافعی الحجازي المكي، ابن عم رسول الله ﷺ، يلتقى معه في عبد مناف. وقد أكثر العلماء، رحمهم الله تعالى، من المصنفات في مناقب الشافعي وأحواله من المتقدمين والمتأخرين، ولد سنة خمسين ومائة، لمشهور الذي عليه الجمهور أن الشافعي ولد بغزة، وقيل: بعسقلان، وهما من الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، وتوفي بمصر سنة أربع ومائتين، وهو ابن أربع وخمسين سنة، قال الربيع: رأيت في النوم أن آدم، ﷺ، مات، فسألت عن ذلك، فقيل: هذا موت أعلم أهل الأرض؛ لأن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها، فما كان إلا يسير فمات الشافعي. تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (٤٦/١)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) هو أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص: فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها، انتهت إليه رئاسة الحنفية، وخطب في أن يلي القضاء فامتنع، وألف كتاب (أحكام القرآن) وكتاباً في (أصول الفقه)، ولد سنة ٣٠٥ هـ وتوفي ٣٧٠ هـ. الأعلام، ١/١٧١.

الحاكم نظراً للنصوص الشرعية الواردة في هذا الشأن، وعلى ولي الأمر العمل بالشورى، ويأثم إذا أعرض عنها، وترك العمل بها^(١).

الفريق الثاني: قالوا إن الشورى لندب وليست للوجوب، ومن القائلين بذلك فخر الدين الرازي حيث قال: (أن كل ما نزل فيه وحي من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور فيه الأمة، لأنه إذا جاء النص بطل الرأي والقياس)^(٢). فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب، هذا مالا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ}^(٣).

فعندما يشاور النبي محمد ﷺ أصحابه فهذا يعمل على تأليف قلوبهم، وانتشار الحب والترابط بينهم نتيجة لهذه المشورة، كما أنها تعويد للمسلمين من بعد النبي محمد ﷺ ليتبعوا هذا النهج عند معالجتهم لأي أمر من الأمور كونه ﷺ قدوة لهم، وقد سبق أن أخذ بالمشورة فعليهم أن يأخذوها هم من باب أولى.

(١) أصول الفقه: محمد أبو زهرة، (ص ٢٣٤)، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م.

(٢) مفاتيح الغيب، (٩/٤١٠).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١/٥٣٤).

التوكل :

التوكل لغة: (مصدر توكل يتوكل وهو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلاً على غيره)^(١).

واصطلاحاً: (هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه)^(٢).

(والوكيل من أسماء الله الحسنى، وهو الموكول إليه الأمور ولكن الموكول إليه ينقسم إلى: من يوكل إليه بعض الأمور وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل وليس ذلك إلا الله ﷻ، والموكول إليه ينقسم إلى: من يستحق أن يكون موكولاً إليه، لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص لأنه فقير إلى التفويض والتولية، وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكلة عليه، لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق، والوكيل أيضاً ينقسم إلى: من يفي بما وكل إليه وفاء تاماً من غير قصور، وإلى من لا يفي بالجميع، والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه وهو قادر على القيام بها وفي إتمامها وذلك هو الله تعالى فقط)^(٣).

(١) مقاييس اللغة، (٦/١٣٦).

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: زين الدين عبد الرحمن بن رجب السلامي، تحقيق: إبراهيم باجس، (٢/٤٩٧)، ط٢، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٢هـ.

(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، (ص ١٢٩).

قال ﷺ: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب، قيل: ومن هم؟ قال: لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»^(١).
فالتوكل إرجاع الأمر كله إلى ماله، والتعويل على وكالته، وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة، لأن الحق قد وكل الأمور كلها إلى نفسه وأياس العالم من ملك شيء منها.

والتوكل يكون على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى.

والدرجة الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب، اجتهداً في تصحيح التوكل، وقمع تشرف النفس وتفرغاً إلى حفظ الواجبات.

والدرجة الثالثة: التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل، وهو أن يعلم أن ملكه الحق تعالى للأشياء ملكة عزة لا يشاركه فيها مشارك فيكل شركته إليه؛ فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق هو مالك الأشياء وحده^(٢).

التوكل في آل عمران:

إن خلق التوكل على الله كان محل مدح وثناء من الله - عز وجل - للمتوكلين عليه، فهو موسوم بمحبة الله تعالى لصاحبه، فمن كان الله تعالى حسبه ووكيله ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم، فهو سبحانه لا يضيع من التجأ به، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ إِنَّ يَنْصُرْكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، (١١٢/٨)، حديث رقم: (٦٥٤١).

(٢) منازل السائرين: أبو إسماعيل عبد الله الهروي، (ص ٤٤)، دار الكتب العلمية - بيروت.

اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴿١﴾، (فالتوكل حقيقته الاعتماد، وهو هنا مجاز في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكل انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله راجياً الإعانة ومستعيناً من الخيبة والعوائق، وربما رافقه قول لسانی وهو الدعاء بذلك.

وقوله: إن الله يحب المتوكلين لأن التوكل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه وهذا، أدب عظيم مع الخالق يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله) (٢).

وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣)، فالتوكل الحقيقي هو أوضح برهان على تحقيق عقيدة التوحيد الخالص في قلب المؤمن، فهو لا يتوكل على مخلوق مثله، إنما يتوكل على الله تعالى القادر على كل شيء؛ فالمؤمن يأخذ بالأسباب خضوعاً لسنن الله تعالى في نظام خلقه، ثم يتوكل على الله تعالى وينتظر النتيجة منه سبحانه، وخلق التوكل من أعمال القلوب، وليس قول اللسان فقط.

(وفي هذه الآية دليل على التوكل على الله وتفويض كل الأمور إليه تعالى، والتفويض هو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرها واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له؛ فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره

(١) آل عمران، ١٥٩-١٦٠.

(٢) التحرير والتنوير، (٤/١٥٢).

(٣) آل عمران، ١٧٣.

لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليئه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليئه لها، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته؛ فالتقدير في الآية الكريمة: يكفينا الله ونعم الكافي^(١).

كما أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به.

الاعتصام بالله :

إنَّ نعم الله علينا عظيمة، وأعظم هذه النعم بعد نعمة الإيمان والهداية هي نعمة الأخوة في الله التي جعلت أبناء أمة الإسلام تربطهم علاقة متينة راسخة هي علاقة الدين التي هي أقوى من علاقة النسب، وهي العلاقة التي جعلت المسلمين جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى رغم اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم يوحدهم الاعتصام بحبل الله والاتصاء تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

معنى الاعتصام لغة: (العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى: إذا امتنع، واستعصم: التجأ، والاعتصام: الاستمسك بالشيء)^(١).

الاعتصام اصطلاحاً: (اجتماع المسلمين على الاستعانة بالله، والثوق به وعدم التفرق عنه، والاجتماع على التمسك بعهدته على عباده، وهو الإيمان والطاعة)^(٢).

الاعتصام في آل عمران:

إن الاعتصام بالله خلق من أخلاق القرآن الكريم، وجانب من هدي النبي محمد ﷺ، وقد جعله الله طرقاً للنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾^(٣)، لما أمر الله تعالى المؤمنين بالاتقاء

(١) مقاييس اللغة، (٤/٣٣١).

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، (١/٢٠٦).

(٣) آل عمران، ١٠٣.

عن المحظورات، أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات، وهو الاعتصام بحبل الله.

(فكل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبه ذلك الطريق أمن من الخوف، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزل رجل الكثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف، فكان المراد من الحبل هاهنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين، وهو أنواع كثيرة، فقال ابن عباس ؓ: المراد بالحبل هاهنا العهد المذكور في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وإنما سمي العهد حبلاً لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء، وكان كالحبل الذي من تمسك به زال عنه الخوف، وقيل: إنه القرآن، وقيل: إنه دين الله، وقيل: هو طاعة الله، وقيل: هو إخلاص التوبة، وقيل: الجماعة، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله ولا تفرقوا وهذه الأقوال كلها متقاربة، والتحقيق أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبل تحرزا من السقوط فيها، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزا لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله، فأمرنا تعالى بالاعتصام به^(١).

فإن الله تعالى بين في الآية السابقة أن الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده، وهو هنا يذكرهم بهذه النعمة، ويذكر لهم كيف كانوا في الجاهلية أعداء قبل أن يأتي الإسلام فيؤلف بينهم، فالقلوب لا يمكن لها أن تجتمع إلا في ظل الأخوة في الله، فتمحى الأطماع الشخصية عندها، ولن تجد الأمة من ينصرها على أعدائها من الداخل والخارج، ما لم تجعل الله لها ولياً

ونصيراً، وتضع ثققتها به سبحانه، بالإضافة إلى إقامة شعائر الدين، وركائزه الإيمانية.

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، فمن اعتصم بالله تعالى، وتمسك بدينه وعقيدته، فقد هداه ربه إلى الصراط المستقيم.

أنواع الاعتصام:

الاعتصام نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: (الاعتصام بالله والاعتصام بحبله ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين؛ فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له؛ فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلزم بها في طريقه)^(٤).

(١) آل عمران، ١٠١.

(٢) آل عمران، ١٠٣.

(٣) آل عمران، ١٠١.

(٤) مدارج السالكين، (١/٤٦١).

فحقيقة الاعتصام: هو أن يلجأ العبد الفقير إلى الله وحده وأن يتوكل عليه وحده وأن يعتصم به وحده، وأن يفوض الأمر إليه وحده، وأن يحتمي به وحده، وأن يثق فيه وحده، وأن يستعين به وحده، وأن يستغيث به وحده ﷺ في كل أمر من أموره وشأن من شؤونه.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس اعتصاماً بالله تعالى، ونرى هذا واضحاً في قصة سيدنا زكريا — عليه السلام — الواردة في السورة، حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً وقد بلغ به العمر عتياً؛ فلبى الله ندائه وأجاب دعوته وأعطاه ما تمناه، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

فهذه الأخلاق التي جاءت في سورة آل عمران، ومكارم الأخلاق من أصول الشريعة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة، لأن المؤمن الحق هو الذي يمثل لأوامر الله تعالى ويتحلى بالأخلاق الحميدة، لما لذلك من أثر طيب يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، وأثر التحلي بهذه الأخلاق لا يقتصر على حياة الإنسان في الدنيا فقط، بل تعد سبباً لرفع درجاتهم ومكانتهم يوم القيامة، قال ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق» (٢).

(١) آل عمران، ٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، (٢٥٣/٤)، كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق، حديث رقم: (٤٧٩٩).

المراجع

القرآن الكريم .

- ١- الأخلاق في الإسلام مع مقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية، المؤلف: أ. د/ يعقوب المليجي، الناشر: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ.
- ٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، الجزء: ٣، ٤، ٥، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٣- كتاب التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة: الأولى، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٤- إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الجزء: ٣، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- ٥- حقائق الأولياء: سراج الدين عمر بن علي الأندلسي، اعتنى به: يوسف أحمد، (٧٢/١)، ط١، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.
- ٦- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الطبعة: الأولى، الجزء: ٨، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، سن١٤٢١هـ.
- ٧- الأخلاق في القرآن الكريم: محمد تقي مصباح اليزدي، تحقيق: محمد حسين اسكندري، (٣/٣٤٤)، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٢٥هـ.

- ٨- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الجزء: ١، ٢٥، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- ٩- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الجزء: الثالث، الرابع، الطبعة: الثانية، الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق، ١٤١٨هـ.
- ١٠- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- ١١- تهذيب الأخلاق: أبو عثمان عمرو بن الجاحظ: علق عليه: إبراهيم بن محمد، (ص ٢٤)، ط ١، دار الصحابة للتراث، ١٤١٠هـ.
- ١٢- البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، (٥٢٣/٢)، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ١٣- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ، الجزء: الثالث، السابع، الخامس عشر، ٩.
- ١٤- الأخلاق الإسلامية وأسسها، المؤلف: عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، الطبعة: الخامسة، الناشر: دار القلم - دمشق، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٥- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الجزء: ٣، الطبعة: الأولى، الناشر: دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

- ١٦ - مفردات ألفاظ القرآن، المؤلف: الراغب الأصفهاني، ط١، دار القلم بيروت، ١٩٩١م.
- ١٧ - حدائق الأولياء، المؤلف: سراج الدين عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن الأنصاري الأندلسي المتوفى (٨٠٤هـ)، اعتنى به ووضع حواشيه: السيد يوسف أحمد، الجزء: الأول، الطبعة: الأولى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ١٨ - التقوى «تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها»: عمر بن سليمان الأشقر، (ص ٦٩)، ط١، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٣٣هـ.
- ١٩ - مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (٢/٦٣٧)، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٢٠ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبد الله البكري الأندلسي، (٢/٤٦٨)، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- ٢١ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، المؤلف: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، الطبعة: الثانية - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها - دمشق
- ٢٢ - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: شمس الدين السفاريني، (١/٢٣٢)، ط٢، مؤسسة قرطبة - مصر، ١٤١٤هـ.
- ٢٣ - رياض الصالحين: محي الدين النووي، تحقيق: ماهر ياسين، (ص ١٤)، ط١، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ.
- ٢٤ - التعريفات الفقهية، المؤلف: محمد عيم الإحسان المجدي البركتي، الطبعة: الأولى، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- ٢٥- الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية: أحمد بن يوسف الأهدل، (ص ٨٨)، ط ٢، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٣١هـ.
- ٢٦- الذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، (ص ٢١٠)، دار السلام-١٤٢٨هـ.
- ٢٧- أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد، (ص ٣٠١-٣٠٢)، دارمكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
- ٢٨- تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (١/٤٦)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٩- أصول الفقه: محمد أبو زهرة، (ص ٢٣٤)، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ٣٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: زين الدين عبد الرحمن بن رجب السلامي، تحقيق: إبراهيم باجس، (٢/٤٩٧)، ط ٢، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ٣١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الطبعة: الثانية، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت- ١٣٩٣هـ.